

تاريخ تطوّر صناعة الورق والكتاب في بلاد المغرب والأندلس

أ.د فرحات الدريسي

دار المعلمين العليا.جامعة تونس.

1 - في مطالب البحث :

ينبغي البحث على ثلاثة أضلاع: ضلع قطب، متعيّن بعبارة "صناعة الورق والكتاب ودورها في النشر" ويوصل بجانب فني ذي مناح تقنيّة ومهنيّة أو حرفيّة تحيل إن قليلا أو كثيرا، على ما يسمّى في الدراسات الحديثة بوسائل الثقافة أو المعرفة، وعلى وظائفها ودلالاتها الفكرية والمعرفيّة والنفسيّة، وضلع إشاريّ يتحدد بالمكان من حيث هو فضاء "إنجاز" في بلاد المغرب والأندلس "وضلع حاكم في طريقة الأداء وكيفية الإنتاج "تاريخ تطوّر....عبر التاريخ" ويوصل بخصائص الحراك والسيّرورة والصيرورة، من جهات ناتج الضلعين السابقين.

نحن، حينئذ، إزاء مبحث ناظر في خارطة ذهنيّة الحركة بناء فكري لجغرافيّة الثقافة العربيّة الإسلاميّة، من جهة صناعة الكتاب المعدودة آليّة ماديّة

من آليات إنتاج المعرفة وأسلوباً من أساليب النشر والتوزيع. وطريقة من طرائق الثقافة، وهي جميعها تساعد من جهات مباشرة وغير مباشرة على اختطاط مسلكية فكرية لخطاطة ثقافية (UN PLAN CULTUREL) تستفاد من شبكة علاقات متعددة الاتجاهات ترسمها حركة صناعة الكتاب وتوزيعه ونشره، من داخل مراكز الإشعاع العلمي في المغرب الإسلامي بعُدوتيه ومن خارجها، صوب المشرق العربي الإسلامي تأثراً وتأثيراً دون أن تغفل عن حراك آخر صوب أوروبا المسيحية.

2 - في أفق المبحث :

إن في الحديث عن صناعة الورق والكتاب والنشر والتوزيع حديثاً عن آلية من آليات إنتاج المعرفة ترقى إلى مفهوم الوساطة الصناعية المادية بأبعادها الفنية والتقنية ومهاراتها المهنية والحرفية بوسائل يدوية وأدائية وآلية، من جهة، ودلالة على تحولات فكرية تكون من آثار الانتقال من نظام مخصوص في التفكير إلى نظام آخر في التفكير، وهي آثار ترد، بدورها، إلى الانتقال من نظام وسائطي في إنتاج المعرفة إلى نظام آخر، على غرار التمييز بين النسخ اليدوي وخصائص إنتاجه وأشراط تحقيقه وضيق حدوده والطباعة الآلية وجدواها أو التمييز بين العملية الشفاهية والكتابية والتدوين أعني بين الراوي والمحدث والحافظ والناقل والكاتب والشاعر والناثر والخطيب باعتبارهم وسائط إنتاج معرفي تجسد أنظمة فكرية مختلفة وإن كانت متسندة، بدرجات متفاوتة⁽¹⁾.

1) DEBRAY Régis; Cours de médiologie générale, Paris 1991 – Manifestes médiologiques. Dts. Gallimard. paris 1994.

ألح فيها على السلطة الفكرية الناشئة عن الوسائط الثقافية المتعددة والمختلفة باعتبارها أبنية فكرية تسهم في تحقيق التواصل ونشر المعرفة.

لعله يتضح، من تلك التحديدات المفهوميّة، أنّ صناعة الورق عموماً، والكتاب خصوصاً، مرحلة لاحقة بوسائط ثقافية سابقة وأسبق، على غرار حديثنا اليوم عن صناعة الكتاب الإلكتروني والحامل الرقمي، وما أنشأته من تحولات فكرية ومعرفية ونفسية ومادية ... ويمكن أن يتّسع هذا المبحث إلى الحديث عن أساليب التواصل وجريان المعرفة وآليات تطورها وأنظمة وإنتاجها وخصائص نشرها ومطالب توزيعها وعن أشرط مرجعيّاتها ومصادر سلطتها، وعن حدود آثارها في الفرد والمجتمع والدولة فضلاً عن التعلم والتعليم وأشكال تحصيل المعرفة وأصنافها ومراتبها⁽²⁾.

3 - في مصادر البحث :

لم نعدم، لا وثائقياً ولا تاريخياً، في البيئة الثقافية العربيّة الإسلاميّة منذ القرن الهجري الثّالث، على الأقل، إشارات مبنوثة في ثنايا المؤلفات الأدبية والتاريخيّة والجغرافيّة والموسوعيّة إلى صناعة الورق ومهنة الوراقة ومواطنها ودكاكينها في الأسواق ومادّة الكاغد وأشكال القرطاس وأنواع الأقلام ونماذج الحدّ أه المداد⁽³⁾.

2) GOUDY Jacques; Entre l'oralité et l'écriture (traduit de l'anglais par Denise Paulne et révisé par Pascal Ferroli) P.U.F1994. 4ème partie, L'écriture et son influence sur les individus dans la société, p.223.

—Maritain, Les degrés du savoir, Paris 1932.

3) - اليعقوبي : البلدان ط. ليدن 1829م ص 264 "إنّ المعتصم حين ابتنى مدينة سامراء أقدم جماعات من أرباب المهن والصناعات لتعمر بهم مدينته، ومن جملتهم أنّه "حمل قوماً من أرض مصر يعملون القراطيس فعملوها فلم تأت في تلك الجودة (...) ولم يخرج منه (البردي) إلاّ الخشن الذي يتكسر".

- ابن الفقيه : مختصر م.ن ص 253. 274.

- ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان. ص 253. 274.

- الخطيب البغدادي : تقييد العلم، تحقيق يوسف العش. ط. دمشق 1974. ذكر أماكن صناعة القرطاس. ص. 272.

- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء 476/2 أشار إلى أنّ الفصل بن يحي البرمكي (ت. 193هـ) قد أنشأ أول معمل لصنع الورق في بغداد.

وإلى فضل الخطّ والكتابة والكتاب ومدى الحاجة إليها في التّواصل والتّفاهم⁽⁴⁾.

كانت صناعة الخط ومواد الكتابة وفنون تعليمها وتعلّمها وطرق حذاق الخطّاطين (الوزير محمد ابن مقلّة. ت. 328هـ. وابن البواب. ت. 413هـ) قد أخصبت ضربا من التّفافة الماديّة محورها الكتاب الذي كان أداة لإنتاج المعرفة ومصدر رزق وحرفة، وعنصر زينة وحسن، وأمانة على رفعة المنزلة الاجتماعية، وإن ظلّت صناعة الكتاب وظيفة مشتركة بدرجات متفاوتة بين النّاسخ والنّاقل والشارح والمفسّر والمهذّب والمشدّب والمختصر والمكمل والواصل والمتمّم والراوي والمحدث والحافظ والمملي والمقرئ والمعلّق والمعقّب فضلا عن المصنّف المؤلّف⁽⁵⁾.

- وانظر لمزيد التوسع : علي بن إبراهيم النملة: الوراقة وأشهر أعلام الوراقين : دراسة في النشر القديم ونقل المعلومات ط. الرياض 1415هـ/1995م.

- كوركيس عواد : الورق أو الكاغد: صناعته في العصور الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد. 23 س 1948. ص 417.

(4) الجاحظ : الحيوان، مقدمة الكتاب 50/I-80-81-84-89 (من فضل الكتابة والكتاب وفي التّرجيب في اصطناع الكتب وما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب.

- ابن النديم : الفهرسة. ص. 169.

- التوحيدّي : رسالة في علم الكتابة، تحقيق إبراهيم الكيلاني. ط. المعهد الفرنسي. دمشق 1951.

ضمن. 3. رسائل. جاء في سياق حديثه عما كان ينقله إلى ابن سليمان من محاوراته مع الكتاب

والخطّاطين ص 36 "وسمعت ابن المرزبان (297هـ - 378هـ) الكاتب البليغ يقول : الخط

هندسة صعبة وصناعة شاقة وجاء في. ص 42 "وقال اقليدس : الخط هندسة روحانية ظهرت بآلة

جسدية" ولمزيد التوسع. أنظر:

- يحي وهيب الجبوري : الكتاب في الحضارة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي،

ط. 1. بيروت 1988م.

- يحي وهيب الجبوري: الخط والكتابة في الحضارة العربية. ط. 1. بيروت. 1994.

5) BARTHES Roland; Critique et Vérité (Essai) pp76-77. « Le moyen age ; lui avait établi autour du livre quatre fonctions distinctes : Le scriptor (qui recopiait sans rien ajouter) ; le compiler (qui n'ajoutait jamais du sien) ; le commentator (qui n'intervenait lui-même dans le texte recopié que pour le rendre intelligible) et enfin l'auctor (qui donnait ses propres idées en s'appuyant toujours sur d'autres autorités) ».

4 - في تأصيل صناعة الورق والكتاب في بلاد المغرب والأندلس :

اهتمّ القدماء من المشاركة بصناعة الكتاب العربي المخطوط من جهات مواده المختلفة وخطوطه وأنواعها ومصادرها ودرجات جودتها ومراتب تفاضلها، منذ وقت مبكر من تكوينيّة البيئة الثقافيّة العربيّة الإسلاميّة، ومن داخل فهم تعني فيه الكتابة معاني الضمّ والجمع ابتغاء التوثيق قبل أن ترقى إلى معاني التسطير والتصنيف والتأليف على وجوه مخصوصة فنيّة وصناعيّة وتعني فيه القراءة معاني الجمع وفهم الخطّ وفكّ الحروف قبل أن ترقى إلى معاني الفهم وفهم الفهم والتأويل. أعني الترابط بين فنّ التعبير وفنّ التفكير⁽⁶⁾.

ولكن تكاد تجمع الأخبار على أنّ حظ بلاد المغرب والأندلس من صناعة الورق والكتاب كان أقلّ شأنًا من حظّ بلاد المشرق ذات الأسبقيّة الزمنيّة لأسباب تاريخيّة (الصّين - مصر - سمرقند - خراسان - بغداد - دمشق...).

"إذا انتقلت إليها (بلاد المغرب والأندلس) صناعة الورق في مرحلة متأخرة نسبيًا واشتهرت به مدينة شاطبة الأندلسيّة"⁽⁷⁾.

ويعد طريق القيروان صوب صقلية وقرطبة ومدن الأندلس عموماً، منذ أواخر القرن الهجري الثالث عموماً (في العهد الأغلبي) وبداية من القرن الهجري الرابع (العهد العبيدي) خصوصاً، مدخلا إلى انتقال صناعة الورق أو الكاغد من القيروان وتونس والمهدية إلى العدوّة الأفرنجيّة من طريق صقلية

(6) عنبر محمد : جدلية الحرف العربي وفيزيائية الفكر والمادة. دار الفكر، ط.1. سورية 1408هـ/1978م.

(7) أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات. ط.1. القاهرة. 1418هـ/1997م. ص.30. نقلا عن الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" ص.556. "ويعمل بها من الكاغذ ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض، ويعم المشارق والمغرب" وعن ياقوت الحموي الذي يؤكد ذلك في معجم البلدان بقوله III/235 "ويعمل الكاغد الجيد فيها، ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس".

الأغلبية ثم الفاطمية، على وجه الخصوص، بعد أن سبق أن تحققت آثار العلاقات الثقافية والعلمية من طريق القيروان صوب العراق ومصر والشام⁽⁸⁾.

نخلص، حينئذ، إلى أنّ الحديث عن تطوّر صناعة الورق والكتاب في بلاد المغرب والأندلس يستوجب الإلمام بالعلاقات الثقافية بين مراكز الإشعاع الفكري المسهمة في بناء البيئة الثقافية العربية الإسلامية وترسيم الطّرق الواصلة وطبيعة العلاقات الجامعة بينها، أحادية الاتجاه كانت أو ثنائية الاتجاه أو متعدّدة الاتجاه، داخليا وخارجيا (على غرار القيروان صوب المشرق والقيروان صوب صقلية والأندلس والقيروان صوب فاس وسبّنة والقيروان صوب سوسة والمهدية وتونس، أو صقلية صوب الأندلس، الأندلس صوب الأفرنج والعكس بالعكس...)⁽⁹⁾.

(8) جاء عن حسن حسني عبد الوهاب في: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ط.2. مزيدة ومنقحة تونس 1981 II /153-154.

"نقل الرّاحلون الأولون من أبناء المغرب إلى بلادهم ما تحتاج إليه الكتابة من معدات وأدوات، فجلّبوا من المشرق أقلام الكتابة بأنواعها، وكذا طريقة صنع المداد ومختلف الأصباغ، ولا سيما طريقة تحضير جلود الحيوان لتكون رقوقا صالحة لأن يكتب عليها، إلى غير ذلك من الوسائل التي يستلزمها تقدم التعليم وانتشار الثقافة.

- وخلص في II /165. إلى "وفي اعتقادنا إن صناعة الكاغد أول ما دخلت إلى العدة الإفرنجية (قارة أوروبا) إنما كان جوازها من البلاد التونسية مباشرة، وحصل ذلك في العصر الأغلبي، فقد نقلت صناعته أولا إلى صقلية حينما كانت تابعة لحكم الأفريقيين، وكانت عاصمتها (بلرم Palermo) مكتظة بالعلماء الأفريقيين وأصحاب الحرف والمهن، ثم من صقلية تسربت صناعته إلى قلورية (Calabria) ولمبردية (Lombardia) من ولايات جنوب إيطاليا، ومنها إلى مدينة صاليرنو (salerno) ...".

(9) م.س. II/ص. 161-162-163

ضبط حسن حسني عبد الوهاب لائحة إسمية بوراقين مهرة وحذاق بصناعة الرق والكاغذ أو الورق، انتقلوا من إفريقية إلى الأندلس من جهات مختلفة مباشرة وغير مباشرة، استهلها بقوله "وهنا يجب التنبيه إلى أن أهل الأندلس إنما أخذوا صناعة تحضير الرق، وكذا صناعة ورق الكاغذ بعده، عن أهل القيروان، ومن القيروان تسربنا إليهم لا محالة، ولنا على ذلك شواهد تاريخية لا يطرقها شك...".

ويضيف II/163 "وإننا لو أردنا استقصاء كل الوراقين من الأفرقة الذين اجتازوا إلى العدة الأندلسية في مبتدأ ظهور الحركة العلمية بها، أي في القرن الرابع للهجرة - سواء الذين لم

وقد رسم حسن حسني عبد الوهاب خارطة عامّة لجغرافيّة صناعة الورق أو الكاغذ والكتاب، وناصّة على معالم تطوّرهما وعلى احداثيات حراكهما في المشرقين والمغربين، قائلاً : "خلاصة القول إنّ الورق الذي أخذ العرب صناعته عن الصّينيّين مباشرة في أواسط القرن الثّاني (بالضّبط في سنة 134هـ/751م) شاع استعماله في خراسان ثم في بغداد فالشّام فمصر، فأفريقيّة (القيروان) ومنها انتقل بواسطة المسلمين الأفارقة إلى "أوروبا" الجنوبيّة (جزيرة صقلية بإيطاليا) ومن ناحية أخرى انتقل في سيره الطّبيعي من القيروان إلى المغرب الأقصى (فاس وسبتة في سنة 504هـ/1100م) أو قبلها، ومنها عبر مجاز طارق، ودخل الأندلس، فقلّد الإسبان صناعته عن العرب، ومنها دخل إلى جنوب فرنسا فطراً على أوروبا من ناحية أخرى بعد ظهوره وانتشار صنعه في إيطاليا كما ذكرنا"⁽¹⁰⁾.

5 - في علاقة صناعة الكتاب بالتمدّن :

من الشّائع أن للكتاب قيمة كبيرة عند الأندلسيين والمغاربة وأن من فضائلهم "قبول الصّنائع : و"إحكام التمدن والاعتماد" وإن لم نعدم الإشارة إلى ندرة المصادر الأندلسيّة والمغربيّة في المشرق رغم أن رحلة المغاربة إلى

يبارحوا القطر الإفريقي ممن اشتهروا بمهنة الوراقة - لطلال بنا الحديث، لكن سيجد القارئ في غضون تراجم العلماء الذين أوردنا ذكرهم في كتابنا ما يدلّه على صحة ما قمنا من أن صناعة الورق - أي الكاغذ - إنما تسربت إلى الأندلس ومنها إلى بقية قارة أوروبا الغربيّة من أفريقيّة التونسيّة"

ويخلص إلى الحكم في 166/II "وليس من شك أن صناعة الورق دخلت من ناحية أخرى إلى بلاد أوروبا الغربيّة (إسبانيا وفرنسا) فقد تدرجت إليها من الأندلس حيث كانت مصانع الكاغذ موجودة خصوصاً في مدينة شاطبة (Xativa).

الميزوري العروسي : حضارة القيروان بتونس: التقاطع الحميد مع الآخر، ص 3-6 (محاضرة منشورة في هذا العدد).

(10) م س II/ص ص 166-167.

المشرق كانت أكثر من رحلة المشاركة إلى الأندلس والمغرب، من جهة العموم⁽¹¹⁾.

وقد سبق أن بين ابن خلدون، في مواضع عديدة من مقدمته، الترابط العضوي بين الصناعات المادية والمعيشية والتألق فيها واستجاداتها، من جهة، وعوائد الترف وأحواله، من جهة ثانية، ورسوخ الحضارة وأصول أمدائها، من جهة ثالثة⁽¹²⁾.

وقد عد صناعة الوراقة عموماً، وصناعة الكتابة خصوصاً، من "عداد الصناعات الإنسانية" شرفاً بالرتبة ومنفعة في تدبير المعاش، وإفادة للفكر والعقل⁽¹³⁾.

(11) ابن حزم: فضائل الأندلس.

- ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.
- ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد عبد الله عنان ط.2. القاهرة 1393هـ/1973م. خطبة الكتاب. 80/1.
- ابن الخطيب : أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق. إيلفي بروفسال ط.1. القاهرة 1422هـ/2004م.
- (القسم الثاني : أخبار الجزيرة الأندلسية). المقدمة.
- المقرئ : نفح الطيب من عصف الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1408هـ/1988م.

(12) ابن خلدون : المقدمة. ط. تونس 1989 (2. ج).

- أنظر الفصول التالية : فصل في أن الصناعات لا بد لها من (المعلم). 481/II.
- في أن الصناعات إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته. 482/II.
- في أن رسوخ الصناعات في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدائها. 484/II.
- في أن الصناعات إنما تستجد وتكثر إذا كثر طلبها. 485/II.
- في أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصناعات. 486/II.

(13) م.س. الفصول : في الإشارة إلى أمهات الصناعة. 488/II.

- في أن الخط والكتابة من عداد الصناعات الإنسانية. 502/II.
- في صناعة الوراقة. 510/II.
- في أن الصناعات تكسب صاحبها عقلاً وخصوصاً الكتابة والحساب. 518/II.

فلا عجب، أن كانت صناعة الكتاب في الأندلس والمغرب مستحكمة فيهما مثلها في ذلك مثل صناعة الغناء وصناعة الطبّ وصناعة التّوليد، وأن كانت أدخل في "الصناعات العمليّة التي هي أسباب المعاش والعمران كلّها". وأعلق بتوابع التّرف وأحوال الحضارة (14).

نخلص، حينئذ، إلى أن صناعة الوراقة والكتابة بالفهم الخلدوني تستوجب المباشرة والمعاينة وكثرة التّكرار والتّجربة والدّربة والخبرة والمران وطول الأمد، وأنها "تكسب صاحبها عقلاً" لأنّها تؤوّل إلى علم بالعمل وإلى عمل بالعلم، ولذلك أجزنا الحديث عن ترابط استتباع واستلزام بين ثلاثة أركان :

أ- تقليد علمي نظري بعلم الخطّ والكتابة والوراقة وبوظائفها.

ب- تقليد علمي فني بأساليب الصناعة وطرائق تأديتها عملياً وكيفيات الإنجاز والإنتاج.

ج- تقليد صناعي من طريق المزاولة المهنيّة أو الحرفيّة من جهات الأعمال والمهارة باليد أو بالأداة أو بالآلة.

14) م.س فصل في أن رسوخ الصناعات في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدّها 484/II. وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد، فإننا نجد فيها رسوم الصناعات قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها (...) وسائر الصناعات التي يدعو إليها التّرف وعوائده. فتجدهم أقوم عليها وأبصر بها، وتجد صناعاتها مستحكمة لديهم، فهم على حصّة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار، وإن كان عمرانها قد تناقص والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدو. وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط. وما بعدها من دولة الطوائف. وهلمّ جرّاً. (...) وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها من الحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم، وما استكمل لها في ذلك من الصناعات في سائر الأحوال، وإن كان ذلك دون الأندلس (...) والقيروان (...) ومراكش...

ويمكن القول، وثائقياً وتاريخياً، إنّ الركن الأول الذي يعدّ أعلق بتقييد العلم فهو يظهر مشرقي النشأة والمنزع لأسبقية زمنية ومنطقية (15).

وأما الركن الثاني فيلوح وثائقياً وتاريخياً متمكناً عند المغاربة خصوصاً والأندلسيين عموماً، أكثر من سواهم من المشاركة من جهات فنون التركيب: تركيب الأحبار وأشكال أدوات الكتابة وطرائق التسطير وكيفيات الزينة والتحلية والتزييق (16).

وليس أدلّ على ذلك ممّا اكتسبه ذلك الكتاب من سلطة ومرجعية علميتين حكمتا في تأليف لاحقة فهما وإنتاجا مشرقا ومغربا (17).

-
- (15) - عباس حمودة محمود : تاريخ الكتاب الإسلامي . ط. القاهرة 1977.
- عباس حمودة محمود : تاريخ الكتاب الإسلامي المخطوط . ط. 2. الرياض 1412هـ / 1991م.
- عبد الستار الحلوجي : لمحة عن تاريخ الكتب والمكتبات . ط. القاهرة 1972م.
- عبد الستار الحلوجي : المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري . ط. الرياض 1398هـ / 1978م.
- بيدرسن يوهانس : الكتاب العربي منذ نشأته حتى عصر الطباعة، تعريب حيدر غيبة . ط. دمشق 1989م.
- قارى لطف الله: الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي . ط. لرياض 1403هـ / 1983م.
- الحبشي عبد الله: الكتاب في الحضارة الإسلامية . ط. الكويت 1982م.
- الطريقي عبد الله : العمل بالخط والكتابة في الفقه الإسلامي . ط. الرياض 1413هـ / 1992م.
- يوسف رشيد : الكتاب الإسلامي المخطوط تدوينا وتحقيقا . ط. عمان.
- الضامن حاتم صالح: تحقيق رسالة الخط والقلم المنسوبة إلى ابن قتيبة مجلة المجمع العلمي العراقي. المجلد 39 سنة 1409هـ / 1988م ص ص 1-38.
(16) - ينسب إلى المعز لدين الله الفاطمي صناعة قلم الحبر الجاف، أنظر القاضي النعمان: المجالس والمسائرات ص 111.
- وعمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب، تحقيق عبد الستار الحلوجي وعلى عبد المحسن زكي، مجلة معهد المخطوطات العربية. ع. 17. س. 1971 م. ص ص 43-172.
(17) - ضمنَ الملك اليميني يوسف بن عمر بن علي الرسولي (ت. 694هـ): كتابه المخترع في فنون من الصنع، تحقيق محمد عيسى صالحية الكويت. 1989م، الأبواب العشر الأولى من كتاب عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب، حرفيا.
- وانظر لمزيد التوسع في هذه الجوانب الفنية:
- ZERDOUN Monique Bat-yehouda ; les encres noires au moyen-age (jusqu'à 1600), CNRS, Paris, 1983.

وأما الركن الثالث والموصول بالمزاولة المهنيّة والممارسة الحرفيّة من جهات التّجليد أو التفسير والتذهيب والمواد المستخدمة عملاً باليد أو بالأداة أو بالآلة فالثّابت السّائد أنّها ثقافة مهنيّة عمليّة من حذق الصّناع المغاربة، عموماً، والأندلسيين خصوصاً. فقد عد الوزير الفيلسوف أبو بكر بن طفيل في رسالة مطولة عن هدية أهل قرطبة إلى عبد المؤمن بن علي (524هـ/558هـ) : تحلية المصحف العثماني إحدى عشرة طائفة من أصحاب الصنائع والحرف والفنون قائلاً : فحشروا له الصّناع المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية وسائر بلادهم القريبة والقريبة، فاجتمع لذلك حذاق كلّ صنعة، ومهرة كلّ طائفة من المهندسين والصّواغين والنّظاميين والحلائين والنقاشين والمرصّعين والنّجارين والزواقيين والرسّامين والمجلدين وعرفاء البنائين، ولم يبق من يوصف ببراعة، وينسب إلى الحذق في صناعة إلا أحضر للعمل فيه، والاشتغال بمعنى من معانيه⁽¹⁸⁾.

فقد تتالت نظاميّة التّأليف في التّفنن في صناعة الكتاب وإخراجه من جهات الأندلس والمغرب، ومن نتاج العمل بالعلم، والعلم بالعمل، ومن طرق حاصل التّجربة والمشاهدة والمعاينة في الأسواق وحوانيت الوراقين⁽¹⁹⁾.

- la fabrication des encres .p.39.

- l'encre des pays d'Islam.p.123.

- Martin levey ;Medival Arabic bookmaking.

And its relation to early chemistry and pharmacology.Transactions of the American philosophical Society ; philadelphia1962,vol.52,part.. '4.

Une très riche introduction de Martin Levely :

Sur la technologie du livre en Islam (pp05-13),

figure la traduction de l'ouvrage d'Ibn Badis (pp13-50).A la suite du texte d'Ibn Badis

M.levely, en appendice,la traduction d'un ouvrage de Al-Sufyani (XVI s/XI s.H)

traitant plus particulièrement de la reliure).

18 المقري: نفح الطيب I/227.

19 الإشبيلي الفقيه بكر بن إبراهيم (ت 628هـ) : التيسير في صناعة التفسير نشره عبد الله كنون، صحيفة معهد الدراسات الإسلاميّة في مدريد.المجلدان 7-8 مدريد 1959-1960م
القسم العربي: أبحاث ونصوص.

وأمكن الحديث عن ثقافة مادية تُردّ إلى ثقافة علميّة وثقافة فنيّة وثقافة صناعيّة وثقافة مهنيّة وثقافة حرفيّة، دفعت أحد الدارسين إلى الإقرار ببعض جوانبها وبخصوصيّتها وإن كنا لا نقر إستغرابه الظاهرة، لما سبق أن تبيناه، ونورد نصّه على علاّته "لعلّ من الغريب أن كلّ المؤلفات التي وصلت إلينا عن صناعة الكتاب العربيّ المخطوط كتبت كلّها في بلاد المغرب والأندلس، فرغم أن حرفة الوراقة وهي الحرفة المختصّة بإنتاج وتوزيع الكتاب العربيّ قد لعبت دورا هامّا في الحضارة الإسلاميّة، منذ العصر العبّاسيّ فإنّه لم يصل إلينا أدب مشرقيّ يعرف بكيفيّة صناعة الكتاب المخطوط، وربّما تكشف لنا الأيّام عن وجود مثل هذا الأدب في الخزائن غير المفهرسة"⁽²⁰⁾.

وإنّ غلبة المنحى الفنّي والصنّاعي على الكتابة في علم صناعة الكتاب في بلاد المغرب والأندلس لا تلغى استحضار جوانبها العلميّة النظرية ولا كيفيّات الصنّاعة وقواعدها لإخراج الكتاب إخراجا عمليا وشكليا كاللتصّيص على صفات البري. ومسك القلم واستخدام السكّين ومقادير الحروف وموازينها⁽²¹⁾.

- منزلة صناعة الكتاب في بلاد المغرب والأندلس.

جاء في مقدمته "وأخرجته من حالة العدم إلى الوجود والتحقيق ليقفوا من ذلك على علمي بهذا الشغل كما وقفوا على علمي، ويتساوى عندهم خبري وخبري إذ رأوا نتيجة خاطري وفكري... وسميته التيسير في صنعة التفسير..."

- المراكشي الحميريّ محمد بن ميمون بن عمران (ق7هـ) : الأزهار في عمل الأحناب.
- بالقللوسيّ أبو بكر محمد المعروف (ت 707هـ) : تحف الخواص في طرف الخواص .
- السفينانيّ أبو العبّاس أحمد بن محمد (ق 11هـ) : صناعة تفسير الكتب وحلّ الذّهب نشره ريكارد Ricard. باريس 1925م.

(20) سيد أيمن فؤاد : الكتاب العربيّ المخطوط وعلم المخطوطات م. س. ص 36.

(21) ابن الصائغ : رسالة في الخط وبري القلم، تحقيق فاروق سعد ط. 1. بيروت 1977م [أو تحفة أولى الألباب في صناعة الخط والكتابة]. ص 102، 173.

يتضح مما سبق تبينه أن صناعة الكتاب في بلاد المغرب والأندلس تجمع بين : علم صناعة الكتاب وصناعة إنتاج الكتاب وإخراجه، وأنّ ذلك الجمع قد ساعد على أن تتخطّى جانب القواعد النظرية لترقى إلى مطالب الصّناعة العمليّة، إجرائيّاً، وكذلك رقيت فنون الوراقة وصناعاتها المساعدة على إنتاج الكتاب وإخراجه إلى درجات سلم العلمية، بالجمع بين علميّة الصناعة وعلمية الإنتاج العملي، مثلما اقترن الفكر بالصناعة وأضيفت الصناعة إلى الفكر، وارتبط العلم بالعمل الذي قد لا يتحقق إلا بالمشاهدة والرؤية، وبالمقارنة بين ضروب الأعمال من شتى الجهات، من أعمال أهل المشرق أو الأندلس أو بلاد المغرب⁽²²⁾.

الخاتمة :

إن في الحديث عن صناعة الوراقة والكتاب في بلاد المغرب والأندلس حديثاً عن وسائل إنتاج المعرفة ونشرها، وعن وسائل التواصل والتبليغ وعن مواد المعرفة وبرامج التكوين والتّحصيل، من طريق ذهنية علمية وفنية وصناعية ومهنية وحرفية تقرن بين المعرفة والفرد والمجتمع، من جهة، وبين مفاهيم السلطة والمرجعية والمؤسسة الثقافية من جهة ثانية، وتخصب عقلية علمية إنتاجية، من جهات متعددة الطرائق، تلائم بين العلوم والفنون والصنائع

(22) الاشبيلي بكر إبراهيم : التيسير في صناعة التفسير م. س. تتواتر ص. 18-38، عبارات "ولا بتمن المشاهدة والرؤية" وهكذا هي أعمال أهل المشرق بالأندلس وبالعدوة "ولا يصل لمعرفة إلا بالمشاهدة" "ولا يعرف إلا بالرؤية"....

وانظر لمزيد التوسع : محمد المنوني: تاريخ الوراقة المغربية : صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة ط. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، 1991م.

عبد الوهاب حسن حسني : البردي والرق والكاغذ في إفريقية التونسية مجلة معهد المخطوطات العربية. المجلد II/الجز 1، ماي 1956.

ويتضافىف من داخل ترابطها العضوي ملكات الفكر والتصور، وإبداع عملّيات التفكير في التمثيل ومهارات الأداء وكفاءة الإنجاز....

وليس في الأمر عجا وإغرابا إذا عرفنا أنّ تلك المسلكيّة في إنتاج المعرفة وفي إعادة إنتاجها، وفي تنظيمها وفي إعادة تنظيمها، من طريق التّرابط العضويّ بين العلم والعمل بالعلم، أو علم الصناعة وصناعة العلم، وبين ثمار العلم ومطالب التّمتّن اللاّحق بأحوال العمران البشريّ والاجتماع الإنسانيّ، تخص على وجه الدقة والملاحظة الثابتة والقارة، في بلاد المغرب والأندلس، علوم الطب والصيدلة والنبات والفلاحة وإنباط المياه وتوزيعها، والعمارة وفحوى النوازل ومضمون الفتاوى، حتى عهد متأخر، نسبيا، وهو شأن يدفع إلى التفكير في منزلة العلوم والفنون والصنائع في البيئة الثقافيّة العربيّة الإسلاميّة، عموما [فرحات الدريسي: في الثقافة المادية (1) تونس 2003، وفي الثقافة المادية (2) قيد النشر، نهاية 2009]، وفي إسهام علماء المغرب الإسلامي بعدوتيه ومهندسيه وصناعه في إنتاج المعرفة وفي دور الكتاب والوسائط الثقافيّة في تحقيق وحدة الثقافة العربيّة الإسلاميّة مناويل وأمثلة ونماذج أو طُرزاً، ثباتاً وتغيّراً حراكا وسكونا إذا أدركنا قيمة الثقافة الماديّة في الاستدلال على درجات التمتّن ومراتب التّرف⁽²³⁾.

23) SAUGNIEUX Joél, cultures populaires et cultures savantes en Espagne du moyen âge aux lumières, Paris, 1982.